شاعراً لوجب أن لا يرى لأبي تمام بيت واحد ... وليس في الأرض بيتٌ من أبيات المعاني لقديم أو محدث إلا ومعناه غامض مستتر .»[١]

وربما كان الغموضُ راجعًا إلى تلاوة البيت مفرداً ، فإن حدث تقدُّم أو تأخُّر عنه بأبيات لم يبعد أن يستدل ببعض الكلام على بعض . فمن يسمع قول الشاعر :

فَجُنِّبْتَ العَوارَ أبا زنيب وَجادَ عَلى مَحلَّتِكَ السَّحابُ

يظنه دعاءً له واستسقاءً لأرضه ، في حين أن حركة المعنى في الأبيات تدل على أن مراد الشاعر الدعاء عليه أن يهلك الله إبله ، فلا يملك منها ما يعار عليه ، وأن تجود السَّحاب على أرضه وهو مُمْلِق ، فيشتد أسفه على ما ذهب من ماله إذا رأى الأرض مخصبة ، وسائِمَة الحي راعية[٢].

وعلى أساس هذا المذهب كان أبو إسحاق الصابي يقول : إن الحسن من الشعر ما أعطاك معناه بعد مطاوَلة ومماطَلَة ، والحسن من النثر ما سبق معناه لفظه ، وهو ما رفضه ابن سنان ؛ لأن طبيعة التواصل تدل على أن الكلام غير مقصود في ذاته ، وإنما احتيج إليه ليعبِّر الناس عن أغراضهم ، ويفهموا المعاني التي في نفوسهم ، فإذا لم يتحقق ذلك سقط الهدفُ الأصليُّ من الكلام[٣].

ويُرجع ابن سنان أسباب غموض الكلام إلى عدة أمور ، يعود بعضها إلى عملية اختيار اللفظ ، وبعضها إلى تركيب الألفاظ مع بعضها البعض ، وبعضها إلى الدلالة الناتجة من هذا التركيب .

(١) القاضي الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص ٤١٦ ، ٤١٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤١٩ . (٣) ابن سنان : سر الفصاحة ، ص ٢١٢ .